المتاحف السورية والتربية

للدكتور سليم عبد الحق

تعريب وتلخيص الاستاذ بشير زهدي

تقرير قدم الى الاجتماع الدولي للخبراء حول (الدور التربوي والثقافي للمتاحف) المنعقد في باريس من ٢٣ ـ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٤ من قبل اللجنة الفرنسية (لليونيسكو) واللجنة الفرنسية (للايكوم)

مشاكل المتاحف المركزية في سورية

لم تهتم متاحف الجمهورية العربية السورية بالقضايا التربوية والثقافية الا مؤخراً . وكان معظم هذه المتاحف (متاحف أثرية) أقيمت في مبان قديمة لم تكن قد شيدت لهذه الغاية . وكان جهازها الاداري بسيطاً .

وبعد استقلال البلاد شعرنا بحاجة تطبيق إصلاح أساسي على هذه المؤسسات . واطلاعنا على الخبرات والنجاحات المتحفية التي تحققت في مختلف البلاد بعد الحرب العالمية الثانية ، وتلبية لرغبة الرأي العام ـ الذي كان يأمل أن يجعل من المتاحف مساعدة للتعليم ـ فقد قمنا بتجارب عديدة قبل الوصول الى تكوين رأينا الخاص في الميدان المتحفي .

وكنت قد حظيت بإدارة المتحف الوطني بدمشق من عام ١٩٤٥ حتى ١٩٥٠ وكنت وقتئذ أعتقد بإمكان استخدام المتحف كأداة رئيسية للثقافة التاريخية والأثرية والفنية ، وبقدر توسعه وتجدده ورقيه الى درجة متحف مركزي كنت أعتقد بإمكانه أن يكفي البلاد كلها . وقد قمت بإضافة فرع الآثار الشرقية وفرع الفن الحديث إلى الفرعين اللذين كانا موجودين وهما : فرع الآثار اليونانية والرومانية وفرع الفن الاسلامي ، وكان ذلك يهدف إلى إتمام تمثيل كل عصور التاريخ الوطني . وكان علينا في المدة الأخيرة أن نضيف إلى هذه الفروع الأربعة فرعاً خامساً يتعلق بعصور ما قبل التاريخ . وقد وضعت هذه الفروع في أماكن حديثة يبلغ عددها الستين ، ما بين حجرة وقاعة ورواق شيدت حسب ضرورات عرض المجموعات ، وأدخلت في تخطيط مرن يسمح بالتوسعات المقبلة وتحيط بمجموعها حديقة واسعة ، وقد انتهت هذه الفروع بتكوين متحف جميل يمكن أن يعتبر كمتحف طليعي من حيث غناه وتنظيمه ، ونشاطه العلمي والثقافي القادر على توجيه الأبحاث المتحفية والتربوية في سوريا والبلاد المجاورة .

ولكننا لاحظنا بسرعة أن متحفاً وطنياً مركزيا واحداً ، وإن يكن قد توسع وزوّد بعدة فروع ، فإنه لا يكفي لسد كل الحاجات الثقافية لعصرنا في بلاد كبلادنا . وبعد تفكير استنتجنا أن فكرة متحف مركزي يمدحه علماء متاحف عصرنا الحاضر لا يمكن أن تستخدم إلا كنقطة انطلاق أو مرحلة لا بد منها مرت بسرعة بعد تنظيم عمل الادارات المهتمة بالمتاحف في بلد يرغب في تطوير هذا النوع من النشاط المتحفي . وهكذا ، كان علينا أن نضاعف تدريجياً المتاحف المركزية في دمشق ، ونؤسس عام ١٩٥٣ (متحف الفلكلور والصناعات المحلية) في قصر العظم الذي كان مقر حاكم دمشق في القرن الثامن عشر ، كما أننا ساعدنا وزارة الدفاع في تأسيس المتحف الحربي عام ١٩٥٣ في عشرة قاعات واسعة في المدرسة السليمانية التي هي إحدى المباني التاريخية من القرن السادس عشر ، ثم ساعدنا وزارة الزراعة في تنظيم المتحف الزراعي عام ١٩٦١ في بناء حديث .

وإن تمدد المتاحف المركزية في دمشق يفرض نفسه علينا جدياً ، وإننا حالياً نفكر في حاجات التعليم ، ونشر الثقافة ، وتأسيس متحف العلم والتقنية ، ومتحف التاريخ الطبيعي ، ومتحف الصحة ، ومتحف مستقل للفن الحديث ، ومتحف تربوي ، ومتحف الخط العربي ، ومتحف النقود ، ومتحف الطوابع . . . الخ .

ب ـ مشاكل المتاحف الاقليمية السورية:

لم ينتج عن تعدد وإغناء المتاحف المركزية السورية أي ضرر لتطور المتاحف في المدن السورية الأخرى . وكان النشاط المتحفي في العاصمة السورية ينتشر ويحث على القيام بنشاط مماثل في المحافظات ، وقد ساعد تقدم التعليم والثقافة في كل مكان على تأليف جمعيات ـ أثرية وتاريخية وأثنوغرافية وأصدقاء المتاحف ـ التي تساعدنا على تطور المتاحف في مدننا .

وكانت متاحف المحافظات في بدايتها متاحف أثرية أيضاً ، وقد استمرت من عام ١٩٥٠ حتى ١٩٦٤ على زيادة ثرواتها من التنقيبات في المواقع الأثرية أو في المناطق الطبيعية في المنطقة كلها . وقد تأملنا وناقشنا منهاجاً علمياً لتطورها . وقد ظهر لنا ان خير شكل نتبناه في تطور هذه المتاحف هو النموذج الكلاسيكي للمتحف الاقليمي المعروف في أوربا ولاسيما في فرنسا وهولندا ، وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا . . . يهدف الى تمثيل الشروط الطبيعية لمنطقة ما مع تراثها الأثري والتاريخي ، والعلمي والاتنوغرافي والفني .

ولا شك أن هذه المؤسسات الاقليمية لم تستطع أن تتقدم في كل مكان في سورية بنفس الشكل أو النسبة ، وان تكن إدارة كل هذه المتاحف السورية هي أعباء على الدولة . وأن حالة تأليف المجموعات ، والأمكنة الشاغرة ، وهمة المحافظ ووجهاء المدن والهيئات التعليمية ، وجمعيات العلماء ونشاط محافظي المتاحف كل ذلك كانت عوامل هامة اعتمدنا عليها .

ففي كل مكان استعداد لتأسيس متحف يعكس الماضي وخصائص المنطقة . وأن متحف طرطوس ـ الذي نظم في كاتدرائية رومانسكية من القرن الثاني عشر بعدما رممت بنجاح ـ يضم فرعين هما : فرع أثري يضم نتائج التنقيبات في مواقع على الشاطىء السوري مثل رأس الشمرة وعمريت وتل سوكاس وتل الكزل . وفرع اثنوغرافي يمثل شروط السكن في جبال العلويين ، وملابس القرويين وأبناء المدن والتقاليد وأدوات الصيد . . . كما نظم متحف (حماه) أيضاً في بناء تاريخي جميل يضم ثلاثة فروع هي : فرع أثري يشهر التنقيبات التي جرت في تل المدينة والمواقع المجاورة . وفرع تاريخي يتميز بمخطوطاته ووثائق وصور شهداء حماه ، وفرع أثنوغرفي يمثل تقاليدها وصناعاتها المحلية .

وما زال (متحف السويداء) في قاعة كبيرة في قصر الحكومة ، ويضم الفرع الأثري قطع النحت والموزاييك المكتشفة في مختلف المواقع في جبل الدروز . ويهيأ فرع الأثنوغرافيا ، لاعطاء لمحة

عن مختلف مشاهد الحياة الجميلة للاجداد في هذه المنطقة . وكان حظ (متحف تدمر) كبيراً باقامته في بناء واسع حديث يلبي مختلف المتطلبات المتحفية الحالية ، وقد بني منذ عدة سنوات خصيصاً لايواء ثلاثة فروع هي : فرع آثار ما قبل التاريخ المكتشفة في كهوف الجبال التدمرية. وفرع الآثار التدمرية الذي يتميز بمجموعات قطع النحت الفنية والموزاييك وكتابات هذه المنطقة المدهشة . وفرع الصحراء السورية الذي يمثل مشاهدها الطبيعية والانسانية . وقريباً سيكون متحف حلب منظما في بناء فخم حديث جداً — وقع الاختيار على مخططه بعد مسابقة معمارية دولية — وله مختلف الفروع لتعرض فيها المجموعات الفنية الأثرية الأثنوغرافية الواردة من سوريا الشمالية وتملكها هذه المدينة . وترتبط بهذا المتحف إدارة مجموعة من المتاحف الصغيرة مثل (متحف الصناعات المحلية) و (متحف التجارة الشرقية القديمة) و (متحف الطب في القرون الوسطى) وغيرها من المتاحف التي طلب أن يكون تأسيسها في بعض الأبنية التاريخية الحلبية المرممة حديثاً .

وما زالت بقية المدن السورية — مثل اللاذقية وحمص وإدلب ودير الزور ودرعا وجبله وغيرها — تطالب بتأسيس متاحفها الاقليمية لحاجات تعليمية ولتنمية السياحة . ويعدنا بمساعدتهم أساتذة المدارس الثانوية ومدراء المراكز الثقافية وأعضاء الجمعيات العلمية ، ويعرضون علينا آراء بناءة . وتقرر المجالس البلدية تخصيص الأراضي التي ستبنى عليها متاحف المستقبل كما تضغط على الحكومة لتمنحنا الاموال اللازمة .

ج — مشكلة عرض المجموعات في المتاحف السورية :

إن عرض المجموعات في المتاحف السورية المذكورة سابقاً قد تحقق وفقا لطرق بسيطة وواضحة وحديثة . وقد جربنا أن يكون دائما حاضراً في الذهن مفهوم عن مجموع المتحف المؤسس أو المعاد تنظيمه . ومن حسن الحظ أن المادة السابعة من المرسوم التشريعي رقم ١٣٠ تاريخ ٧ تشرين الأول ١٩٥٣ يسمح للمديرية العامة للآثار والمتاحف إمكانية إعطاء المتاحف التي هي في طريق التأسيس مجموعات موجودة في مستودعات متاحف أخرى قائمة . وان تشكيل مستودعات ضخمة تضم مجموعات غنية أثرية وأثنوغرافية وفنية قد سهل مهمة البحث عن المواد اللازمة لتشكيل اية مجموعة في الوقت المطلوب .

وهكذا فإن مفهوم كل متحف جديد كان نتيجة تأليف كل المعطيات الايجابية التي تقدمها الآثار

المختارة من مجموع التراث الثقافي الوطني ليكون معروضاً . وهكذا يعكس المتحف الوطني بدمشق نظرات عن الحضارات الرئيسية التي عرفتها سورية منذ عصور ما قبل التاريخ حتى أيامنا ، وتدل على الحضارات الشرقية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بالتتابع بواسطة آثار اكتشفت في ماري وأوغاريت ، وعمريت وتل خويرة ، وتدمر ودورا اوروبوس ، وحمص واللاذقية ، وجبل الدروز. وتمثل القرون الوسطى والعصور الحديثة روائع الفن المصنفة والمعروضة كفصول كتاب يتعلق بالفن الاسلامي . وفي متحف دمشق الحربي وفقنا تمثيل التاريخ الحربي للبلاد مع تاريخها السياسي بغية توضيح المعرض . كما أن مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعائلية تبدو متتابعة من عرض الأشياء الفلكلورية ومنتجات الصناعات المحلية في قصر العظم . وفي متحف تدمر توضح بمعطيات جغرافية وطبيعية للصحراء العادات القبلية ، والحياة التقليدية في الواحات ، وتنقل الجماعات البشرية . كما أن الملاحة والصيد وتأسيس المرافىء وتنظيم الرحلات البحرية موضحة في متحف طرطوس .

وكان موضع اهتمامنا باستمرار عرض مختلف القطع من كل مجموعة . وقد جربنا أن نجعل طرقنا في عرض الآثار مرنة بقدر الامكان . فالتنوع والوضوح والبساطة والخاصة الجمالية كل ذلك كان موضوع بحث في كل عملية صغيرة أو كبيرة . وإن الشروح والبطاقات المكتوبة باللغة العربية والفرنسية أو الانكليزية مقروءة بوضوح وهي مختصرة تعطي المعلومات الأساسية المتعلقة بالشيء المعروض ، وقد وضعت هـــذه الشروح والبطاقات هنا وهناك بدقة وبدون أن تكون كثيرة العدد . وطلباً للمعلومات الاضافية يمكن للزائرين الرجوع الى الصفحات المحفوظة بأوراق الجيلاتين في دفاتر أنيقة ذات إطارات معدنية مثبتة في جهة يمين مدخل كل قاعة ، وتحتوي هذه الدفاتر معلومات واسعة تتعلق بالمجموعات المعروضة والشروط التي اكتشفت بها مع صور مرسومة وفوتوغرافية . وأخيراً فقد أعددنا ـ أمام بعض الخزائن الحاوية على أشياء مزخرفة بدقة ـ دروجاً أنيقة يستطيع طلاب الفنون الجميلة الجلوس للاعجاب بهذه الزخارف أو نسخ صور عنها. وفي مستودعات عدد من متاحفنا ، حفظت المجموعات محمية من الرطوبة ، ومصنفة ومعروضة حسب ترتيب معين . وقد اعدت في هذه المستودعات أماكن وقاعات عمل لوضعها تحت تصرف المختصين والباحثين والطلاب .

د – فرع التوجيه

لم يستطع تنظيمنا هذا أن يؤدي مهماته بنفس الفعالية ويقدم الحد الأقصى لفائدة كل الزائرين إذ أن بعضهم بقي سلبياً أمام أحسن منجزاتنا المتحفية ، وقد استنتجنا بأن بعضهم إما أن يكونوا غير حائزين على الحد الأدنى من المعرفة التاريخية أو غيرها من شأنها أن تساعدهم على إقامة صلة — على الصعيد الثقافي والعاطفي — مع الأشياء المعروضة ، أو أنهم بحاجة إلى ترجمة إنسانية تساعدهم على تذكر هذا الحد الأدنى ، وأننا لم نشعر بحاجة إرشاد الجمهور في زياراته المتاحف فحسب بل وللمباني التاريخية والمواقع الأثرية ، وهذا ما دفعنا إلى إنشاء الدوائر التربوية .

وإن المادة السادسة من القانون رقم ١٩٧ المؤرخ في ١٩٥٨/١١/٢٨ قد نصت على تأسيس دائرة التوجيه في المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية ويمكن تلخيص مهماتها بما يلي :

١ – التعاون مع محافظي المتاحف ومديرية التنقيبات والدراسات (في المديرية العامة للآثار والمتاحف) في إعداد الكتيبات والنشرات والافلام السينمائية عن الآثار المحفوظة في المتحف والمباني التاريخية والمواقع الأثرية وذلك بغية تأمين المصادر للاساتذة والمعلمين والطلاب والتلاميذ والأدلاء المرخصين .

٢ – التعاون مع مديرية التنقيبات والدراسات ومكاتب السياحة السورية في داخل البلاد وخارجها لنشر أخبار التنقيبات وتعريف الجمهور بشكل عام بنشاط المديرية العامة للآثار والمتاحف بواسطة الصحافة والاذاعة والتلفزيون .

٣ – اعداد برامج مفصلة لزيارات الطلاب والتلاميذ للمتاحف والمباني التاريخية والمواقع الأثرية ، وتوجيه هذه الزيارات بغية جعلها تعليمية ومستحسنة .

٤ – الاتصال بالجمعيات الأثرية وأصدقاء المتاحف والاسهام في نشاطها ، وتقديم التشجيع اللازم والمساعدات التي يمكن للمديرية العامة للآثار والمتاحف تخصيصها لها في موازنتها .

٥ – إعداد المعارض العلمية والأثرية والفنية المتنقلة إلى المراكز الريفية والمصانع والمعامل وذلك بالتعاون مع محافظي المتاحف .

٦ – تهيئة الأدلاء والتراجمة للمتاحف ، وانتقائهم وتوجيههم مهنياً ، وتوسيع ثقافتهم وإغناء معلوماتهم ومراقبة سلوكهم .

٧ – إعداد تسجيلات بعدة لغات موجهة ومخصصة لزائري المتاحف .

٨ - الاهتمام بضيوف الحكومة والوفود الثقافية والصحفيين والسينمائيين من مواطنين وأجانب وإعداد برامج لزياراتهم للمتاحف والمباني التاريخية والمواقع الأثرية وتقديم كل التسهيلات وذلك بالتعاون مع الادارة ذات العلاقة .

٩ - جمع وإعداد وترجمة الاحصاءات المتعلقة بمجموع نشاطات المديرية العامة للآثار والمتاحف .

إن دائرة التوجيه عندنا ما زالت حديثة العهد وصغيرة لم تستطع أن تؤدي كل ما كنا ننتظر من تأسيسها ، وتنقصها الاعتمادات والأشخاص العديدون والمؤهلون ولاسيا الاعتماد - الذي لا بد منه - على الادارات المهتمة بالتعليم والتربية . فمهامها ضخمة ، وهي بحاجة إلى اتمام واتقان منهاجها في العمل . ولكنها ظهرت مفيدة جداً لتطور النشاط التربوي والثقافي في متاحفنا فقد أعدت برامج زيارات للطلاب والتلاميذ . وتأهل أدلاء ، ونشرت كتب مرشدة وكتب تتعلق بموقع أثري ، ونشرات . كما أفادت بقيامها بمهمة دليل للاخصائيين والعلماء وضيوف الحكومة ، وبفضل جهودها المبذولة فقد نقصت أعباء محافظي المتاحف فاستطاعوا أن ينصرفوا إلى تنظيم المعارض ، وإلقاء المحاضرات الموجهة ، وعقد الاجتماعات العامة في قاعات المعرض في متحفهم .

٥ - مستقبل تنظيم المتاحف

ان الثغرات الملحوظة في نشاط دائرة التوجيه تعود إلى الأسباب المذكورة سابقاً ، ولكنها تعود أيضاً إلى عدم وجود منهاج عام يحدد الأهداف التربوية في المتاحف ، وعدم وجود مجلس أعلى يجمع ممثلي المتاحف والادارات المهتمة بالتعليم والتربية لتقرير سياسة تربوية وثقافية مشتركة تطبق في كل متاحف البلاد على مختلف فئات السكان الذين يترددون على هذه المؤسسات التي في امكانية البلاد تقديمها اليهم .

وإن المرسوم التشريعي رقم ٨٨ تاريخ ٣٠ حزيران ١٩٤٧ - الذي يشتمل على الملاك ويحدد صلاحيات المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية التي هي إدارة تتمتع بشخصية معنوية واستقلال مالي - ما زالت فيه ثغرات ، فعلاوة على الفقرة (ج) من المادة الاولى التي تلقي على عاتقها مهمة تأسيس وإدارة وإغناء المتاحف ، والمادة الرابعة من هذا المرسوم التشريعي نفسه التي تحدد الواجبات الملقاة على عاتق محافظي متحفي دمشق وحلب ، والتي تتطلب في الفقرة (ج) من المحافظين تنظيم ومراقبة الزيارات وجعلها مفيدة ، فلا يوجد أي نص آخر يتعلق بالنشاط التربوي في داخل المتاحف . وإن المرسوم التشريعي رقم ١٣٠ تاريخ ١٩٥٣/١٠/٧ الذي

تتعلق مواده (٥ – ١٣) بالمتاحف الموجودة من أثرية وأثنوغرافية وفنية بعدد فروعها المختصة والطرق المتبعة منذ تأسيس المتاحف الجديدة وواجبات وصلاحيات محافظيها . وإن الفقرة (هـ) من المادة (١٣) تعين من هذه الواجبات والاختصاصات ضرورة نشر اشعاع التأثير الثقافي المتحفي الى السكان بمحاضرات وكتيبات وتشجيع جمعيات العلمـــاء والجامعات والمؤسسات العلمية والمدارس الثانوية على زيارة المتحف وتقديم المعلومات العلمية وغيرها إلى الباحثين والطلاب.

وفي المدة الأخيرة قدمنا مشروع قانون يهدف الى تنظيم التشريع في هذه المؤسسة على أسس جديدة ، وقد درس هذا المشروع من قبل كل الهيئات الدستورية في الدولة فوافقت عليه وأوصت به . وإننا نأمل أن ينشر قريباً ويصبح المصدر الرئيسي لتشريعنا المتعلق بمتاحفنا .

وإن مشروع القانون يعيد تنظيم المديرية العامة للآثار والمتاحف ويعطيها حق النظر في كل أنواع المتاحف السورية بدون استثناء (المادة الأولى) . وهكذا فإن المتاحف السورية تصبح على سبيل الحصر ملكا للدولة . ويقوم المجلس الأعلى للمتاحف بمعالجة الأعمال المتعلقة بالمتاحف برئاسة وزير الثقافة والارشاد القومي ، ويجمع الى جانب مندوبي المتاحف مندوبين عن وزارات الثقافة والتعليم والاعلام والمالية والسياحة والشؤون البـــلدية والقروية وجامعة دمشق ، ومن اختصاصاته الموافقة على مشاريع القوانين المتعلقة بالمتاحف واعداد موازنتها ، ورسم سياسة التطور المتحفي وتقرير تأسيس متاحف جديدة وتشييد أبنية جديدة لمتاحف قائمة ، وتأميم المجموعات الخاصة ، وتوزيع نتائج التنقيبات بين المتاحف (المادة : ٣) .

وبعدما تبنينا تعريف المتحف الذي ورد في توصية اليونسكو فإن مشروع القانون ينص على صدور قرار عند تأسيس كل متحف جديد وذلك بغية تحديد طبيعة المجموعات التي عليه أن يحفظها ، وحدود نشاطه العلمي والثقافي ووضع قواعد إدارية خاصة .

وإن المشروع يقسم المتاحف الى أربعة أنواع وهي : متاحف مركزية في دمشق العاصمة ومتاحف إقليمية في المدن الأخرى ومتاحف مواقع أثرية ومتاحف متنقلة . ويعهد الى المديرية العامة للآثار والمتاحف مهمة تنظيم وادارة متاحف التاريخ والآثار ، ومتاحف التاريخ الطبيعي والمتاحف العلمية والتقنية والمتاحف الأتنوغرافية والأتنولوجية ومتاحف الفن ومتاحف عظماء الرجال . وقد أحدث مشروع القانون الذي نحن في صدده مجلس ادارة لكل متحف مركزي أو اقليمي يجتمع شهريا مرة واحدة على الأقل لمساعدة محافظي المتحف في إعداد برنامج علمي ومراقبة تطبيقه واغناء المجموعات والاهتمام بقضايا التربية والثقافة في المتحف .

وإننا نأمل أن نستفيد من اسهام مختلف الادارات التعليمية والفئات في مهمتنا بغية حسن استخدام متاحفنا واعطاء كل فئات المواطنين ، ولا سيما الشباب ، الثقافة والتربية اللتين ينتظرونها منا .